القدس

في (كتاب الروضتين لأبي شامة المقدسي)

د. عبدالله فتحي الظاهر المشهداني (*)

واكب شعر الجهاد والفتوحات الإسلامية معارك الجهاد الإسلامي منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا، وكان بحق وثيقة تاريخية مهمة لدارسي التاريخ الإسلامي وتاريخ الأدب، فقد سجلت تلك الأشعار صور معارك الجهاد وبطولات قادتها وجندها ورثت الشهداء.... وكان لتلك الأشعار الدور الفاعل في إثارة همم المقاتلين وإلهاب الحماس في نفوسهم، كما سجلت مشاعر المجاهدين إزاء بلادهم وحنينهم إليها والى الأهل والولد والأحبة ووصف الشعراء البلاد المفتوحة والبلاد التي أنقذتها هممٌ المجاهدين وسيوفهم ووصفوا العدو المنهزم ورحمة الجندي المسلم بالعدو وبطش العدو بالمسلمين... وكانت أشعارهم صادقة معبرة.....

ولا شك أن الحروب الصليبية كانت قد أجّجت مشاعر الشعراء فضلا عن عامة الناس فألهبت فيهم الشاعرية لذلك راحوا يصفون عظم المأساة التي وضعهم فيها الصليبيون أثر احتلال جزء من بلاد العرب والقدس الشريف، ولقد كانت البلاد حين دخول الصليبين مفككة لا رابط يوحد بين أجزائها المترامية، فقد انشغل اغلب أمرائها بنزاعات وصراعات داخلية أضعفتهم على مدى السنين وأذهبت ريحهم ولم

(*) قسم اللغة العربية _ كلية الآداب / جامعة الموصل.

تحركهم قصائد الشعراء، فقد كانوا في سبات عميق، غير أن هبوة شديدة أيقظتهم حتى أنهم لم يكونوا ليصدقوا ما آل إليه الأمر فقد احتل الصليبيون المعرة عام 492هـ فأمعنوا في قتل أهلها وتحريق دورها بعد نهبها وقتل الشيوخ [1]، ويأتي في العام نفسه حدث جلل لم يكونوا بعدها إلا عوامل لتحريك همم الولاة فقد رأوا ما فعله الصليبيون بالقدس حيث "انطلقوا في شوارع المدينة إلى الدور والمساجد يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز" [2] وقد زاد عدد القتلى على سبعين ألفاً منهم عدد كبير من علماء المسلمين وزهادهم وأعداد ممن جاوروا البيت المقدس من ديار بعيدة مفارقين الأهل والأوطان[3].

لقد ألهب هذا الحدث المأساوي حماس المسلمين في فلسطين والبلاد العربية والإسلامية وراح الشعراء يترجمون غضب الجماهير مستنهضين الناس بأشعار كأنها الشرر وكان من بين شعراء ذلك الحدث أسماء لامعة سجلتها صفحات الكتب ومن هذه الأسماء: ابن خياط الشاعر الكاتب (ت 517هـ) وابن منير الطرابلسي (ت548هـ) وابن القيسراني (ت 548هـ) وأبو المظفر الابيوردي (ت 557هـ) وأسامة بن منقذ (ت 584هـ) وابن سناء الملك (ت 608هـ) وسواهم، ولقد ألهبت الأحداث الجسام مشاعر هؤلاء الشعراء فراحوا يصفونها بلوعة مطالبين العرب والمسلمين بالوقوف إزاء العدوان الصليبي الغاشم، ولقد سجلت أشعارهم كتب التاريخ وتاريخ الأدب وكتب التراجم والدواوين الشعرية، ومن بين هذه الكتب: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لشهاب الدين أبي محمد المقدسي المعروف

---

(1) ينظر تاريخ الحروب الصليبية: ستيفن رنسيمان، ترجمة د. السيد الباز، ط1، بيروت 1967، 1/ 369.

(2) م. ن، 1/ 404.

(3) ينظر: الكامل في التاريخ، عز الدين بن الأثير، بيروت 1966، 10/ 282.

بأبي شامة المتوفى سنة خمس وستين وستمئة هجرية (ت665هـ) فقد صور بصدق رفيع المقام معارك الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ونقل أشعار الجهاد تلك عن الشعراء الذين عاصروا الأحداث، وقد نقل أبو شامة كذلك تصويرا للمدن التي طالها الغزو وحررتها الجيوش العربية والإسلامية، وكانت القدس وهي زهرة مدائن فلسطين واحدة من المدن التي نالها الغزو الصليبي وهي محور بحثنا بحسب ما ورد في أشعار الروضتين، وقد جعلناها على محاور بحسب التسلسل الطبيعي لورودها في الكتاب فكانت على وفق الآتي:

1. تحريض القادة المسلمين على إنقاذ القدس من الصليبيين والحث المتواصل على الجهاد واستنهاض الهمم مع توقع الفتح.
2. وصف معارك الجهاد وغبطة المسلمين بالفتح وإنقاذ القدس ومدح القادة والدعاء لهم وتأكيد تأييد الله ونصره وخذلان الصليبيين.
3. رثاء شهداء الجهاد وبكاؤهم ورثاء القدس وتأكيد عظم الخسارة بفقدهم.

1. تحريض قادة المسلمين على إنقاذ القدس من الصليبين والحث المتواصل على الجهاد واستنهاض الهمم مع توقع الفتح

لا شك أن ما عاشه المسلمون من بطش الصليبيين دفعهم إلى حث القادة المتكرر على طرد الصليبيين وإنقاذ القدس والمدن المغتصبة ولقد كان لدقة مشاعر هؤلاء الشعراء أن بعضهم كان يشعر بقرب الفتح حتى اصبح ذلك عنده أشبه بالحقيقة، ونقرأ في الروضتين ما رواه أبو شامة قال: حين سار عماد الدين إلى حلب لضمها إلى ملكه في سبيل تحقيق الوحدة العربية الإسلامية ولولا ذلك لما استطاع الانطلاق لتحرير بيت المقدس وتحقيق النصر، رحب الحلبيون به وكانت تلك

الخطوة أولى خطوات الوحدة الكبرى[4] حتى أن بعض العلماء نظر في القرآن فوجد عند قوله تعالى:

(الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ) (الروم: من 1-3) ان الروم يغلبون في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة، ويفتح البيت المقدس ويصير داراً للإسلام إلى آخر الأبد، واستدل على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه، فلما فتح السلطان حلب كتب إليه المجد بن جهبل ورقة يبشره بفتح البيت المقدس على يديه ويعين الزمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه عيسى، فلما وقف لفقيه عيسى عليها لم يتجاسر على عرضها على السلطان وحدث بما في الورقة لمحيي الدين بن زكي الدين القاضي وكان هذا واثقاً بعقل ابن جهبل... فعمل قصيدة مدح السلطان بها حين فتح حلب في صفر قال فيها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفرٍ قضى لكم بافتتاح القدس في رجبٍ

وقد وافق فتح القدس لما ذكره، فكأنه من الغيب ابتكره [5] و في قصيدة لابن القيسراني يمدح فيها نور الدين بمناسبة انتصاره على الإفرنج في إحدى المعارك يصفها ويهنئ القائد بالفتح ويحثه في خاتمتها على إنقاذ القدس وتطهير المسجد الأقصى من الصليبيين متخذا في نسجها سبيل أبي تمام في مدحه المعتصم فاتح عمورية متيمّناً بالنص....يقول:[6]

(4) ينظر: شعر الجهاد في الحروب الصليبية، د. محمد علي، 42.

(5) كتاب الروضتين لأبي شامة 46/2.

(6) الروضتين: 1/ 58-60.

هذي العزائم لا ما تدعي القُضُبُ وذي المكارمُ لا ما قالت الكتبُ

وهذه الهممُ اللاتي متى خَطَبَتْ تَعثّرتْ خلفَها الأشعارُ والخُطبُ

حتى يقول:

اَغرْتَ سيوُفك بالإفرنجِ راجفةً فؤادُ روميةَ الكبرى لها يَجِبُ

ويختم القصيدة بقوله:

فانهض إلى المسجدِ الأقصى بذي لَجبِ يوليك أقصى المُنى فالقدسُ مرتقِبُ

وأُذن لموجِك في تطهيرِ ساحلهِ فانّما أنتَ بحرٌ لجُّهُ لَجِبُ

فالشاعر ينظر إلى مستقبل قريب يبشر بفتح القدس لعميق الثقة بالقائد البطل نور الدين الذين كان نذر نفسه للجهاد وهذا يذكرنا يبعد نظر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأشياء والأحداث، فهذا حسان بن ثابت رضي الله عنه توسم الفتح قبل الفتح فوصف الجيش الفاتح وكيف أن نساء المشركين يُحاولن إرجاع خيل المسلمين فتلطمهنّ بالخمر.... وكان الفتح وحدث ما توقعه الرجل [7] وكذلك كان نظر ابن القيسراني الصائب حين دعا القائد نور الدين إلى مواصلة الجهاد وأنه ينظر إلى القدس تلوح بالنصر والفتح القريب.... يقول: [8]

(7) ديوان حسان بن ثابت بتحقيق البرقوقي، 57-66 والقصيدة في فتح مكة.

(8) الروضتين: 1/ 72.

فسِر وآملأ الدنيا ضياءً وبهجةً فبافّق ِ الداجي إلى ذا السنا فقرُ

كأني بهذا العزم لا فلَّ حدُّه وأقصاه بالأقصى وقد قـُضي الأمرُ

وقد أصبحَ البيتُ المقدسُ طاهراً وليس سوى جاري الدماءِ له طـُهرُ

اما ابن منير الطرابلس فيرى أن القائد عماد الدين سيوفق لفتح القدس في الغد فيقول: (9)

بعماد الدين أضحت عروة الد ين معصوباً بها الفتحُ المبينْ

وغدا يلقى على القدس لها كـَلكـَلٌ يدرُسُها درسَ الدَرين (10)

ويتوقع ابن القيسراني فتح القدس كذلك بُعيد فتح الرها فيقول: (11)

فان يك فتح الرها لجّة فساحلها القدس والساحل

ويروي أبو شامة قول ابي الحسن السخاوي أنه سنة ثلاث وسبعين وخمسمئة رأى شخصاً ذا جهامة واقفاً على حائط بجامع دمشق وهو يقول: (12)

ملك الصياصي والنواصي ناصر بالدين بعد أياسه أن ينصرا (13)

وسيفتح البيت المقدس بعدما يطوي الطراز له ويقتل قيصرا

---

(9) م . ن: 1/ 100.

(10) الدرين: حطام المرعى.

(11) م. ن: 1/ 126.

(12) الروضتين: 2/ 204.

(13) الصياصي: الحصون (المعجم الوسيط 1/ 533).

الطراز: مدن الساحل: غزة وعسقلان وزصيدا وعكة.

وكان هذا قبل فتح القدس بعشر سنين.

ويمدح العماد القائد صلاح الدين ويحثه على فتح القدس وضرب طـَغمة الصليبيين، من ذلك: [14]

لا تهملوا البيت المقدس واعزموا على فتحه غازين وأقترعوا البكرا

ويرى عمارة اليمني أن فتح القدس فتح البلاد كلها[15].

وهذا ابن منير يحث القائد نور الدين على ضرب المتعاونين مع الغزاة ويدعو الى سحقهم ويصفهم بمنافقين المظاهرين للكفار فقد وقف حاكم دمشق مع الصليبيين ضد المسلمين آنذاك، ومن شعر ابن منير في ذلك[16]:

يا نو دين الله وابن عماده والكوثر بن الكوثر بن الكوثر

صفر بحد السيف دار أشائب عقلوا جيادك عن بنات الأصفر

هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا نارا تخش بهم غدا في المحشر

كانوا على صلب الصليب سرادقا أنبت بنيته بكل مذكر

أثارهم نجس أذال المسجد الـ أقصى فـَصُن ما دنـّسوه وطهر

(14) الروضتين: 2/ 179.

(15) م. ن: 2/ 193.

(16) م. ن: 1/ 78.

لقد كان الشعراء يرون كل مدينة تفتح سبيلا إلى القدس، فهذا صاحب منبج ينحرف عن السبيل القويم فيحاصره نور الدين وينتزعها منه وبذلك يتوجه العماد إلى القائد داعيا إياه إلى إنقاذ القدس[17].

بشرى الممالك فتح قلعة منبج   فليهن هذا النصر كلّ متوّج

أعطيت هذا الفتح مفتاحاً به   في الملك يفتح كل باب مرتج

وافى يبشر بالفتوح وراءه   فانهض إليها بالجيوش وعرج

أبشر فبيت القدس يتلو منبجا   ولمنبج لسواه كالأنموذج

ما أعجزتك الشهب في أبراجها   طلباً فكيف خوارج في أبرُج

فانهد إلى البيت المقدس غازياً   وعلى طرابلسٍ ونابلسٍ عُج

وفي الروضتين قصائد عديدة ذكرت فيها القدس في معرض الحث على فتحها وتحريرها من الصليبيين وقصائد ومقاطع تجد فيها النظر المؤمن المتطلع إلى الفتح القريب[18].

2. وصف معارك الجهاد وغبطة المسلمين بالفتح وإنقاذ القدس، ومدح القادة والدعاء لهم وتأكيد تأييد الله بنصره وخذلان الصليبيين

في هذا المحور تتداخل الموضوعات وهي في حقيقتها موضوع واحد متكامل، فوصف المعارك يتطلب مدح القادة وذكر أعمالهم الجيدة والدعاء لهم

(17) م. ن: 2/ 150، 1 ق 2/ 380.

(18) ينظر الروضتين: 2/ 106، 107، 116، 117 ومواطن أخرى.

والدعوة لهم بالنصر وهذا أمر ليس في هذا الميدان وحسب بل في كل ميادين الحياة. فالقصيدة قد تبدأ بمحور يكمله الآخر حتى تكتمل وحدة موضوعية كاملة.

أن هذا يعد سجلاً لصفحة من صفحات الجهاد ضد الصليبيين تبرز فيها صفات القادة والجند والأسلحة والمدن والقلاع والحصون التي حدثت عندها المعارك وما لأجله كان القتال كالقدس مثلاً. وترسم تلك الأشعار صوراً حية ناطقة للانتصار وللهزيمة وللفرح وللحزن فقد صورت المجاهدين مزهوين بنصر الله وهم يرفلون بكبرياء مشروع في سوح القتال والعدو منخذلاً مهزوماً.

أن المعارك التي خاضها صلاح الدين لتحرير القدس كانت نموذجاً لمعارك الجهاد وكان هو مثالاً للقائد الفذ الرحيم وعلى الرغم من أهمية القدس فقد طغت شخصية صلاح الدين حين الفتح لأنه القائد الذي حقق الفتح والنصر فكانت القصائد أغلبها تشيد بالقائد المنتصر وتدعو له بالتوفيق المستمر وبالسداد ومع هذا كله فقد نقل أبو شامة قصائد صورت الانتصار وكيف دخل الجند المسلم المدينة المقدسة وكيف استبدل الأذان بضرب الناقوس بعد زمن طال فيه خفوت أصوات المآذن[19]، وهذا نصر لا شك فيه يستحق الوصف، من ذلك كلمة للعماد يصور فيها فرحة المسلمين بفتح القدس فيقول[20]:

ابشر بفتحٍ أميرَ المؤمنين أتى	وصيته في جميع الأرض جوّابُ
ما كان يخطر في بالٍ تصوره	واستصعب الفتح لما أغلق البابُ
وجاء عصرُك والأيام مقبلة	فكان فيه لفيضِ الكفر أنضابُ

(19) استبدل الأذان بضرب الناقوس أي جاء بالأذان وطرد الناقوس.

(20) م. ن: 2/ 102-103.

أحيا الهدى وأمات الشرك صارمُه لقد تجلّى الهدى والشركُ منجابُ

بفتحة القدس للإسلام قد فتحت في قمع طاغية الإشراك أبوابُ

ففي موافقة البيت المقدس للـ بيت الحرام لنا تَيْهٌ وإعجابُ

نفى من القدس صلباناً كما نُفِيَتْ من بيتِ مكة أزلامٌ وأنصابُ

ففي القصيدة تأكيد أن فتح البيت المقدس بذكرنا بفتح مكة من عدة مناحٍ فقد ذكر بعض وجوه الشبه في ذلك منها إخراج الصلبان وتحقيرها ونفيها كما كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم قد اخرج من مكة والكعبة الأصنام واحتقرها ومَنْ يعبدها وكيف نفاها مطهراً البيت منها.

ومن ذلك كلمة لابن المجاور عرضها على السلطان في القدس، يصف فيها القائد وجنده المجاهدين(21):

الوقت أضيق من سماع قصيدة موسومة لصفات أغيد أهيفِ

الجد في هذا الزمان مبيّن والهزل فيه مع الغواية مختفِ

يا أيها الملك الذي لطباعه وسيوفه خُلُقا رضىْ وتَعَسَّفِ

جاءت جنود الله تطلب ثأرها وصدورها بل عن قليل تشتفي

قوم يخوضون الحمام شجاعة لا ينظرون إليه من طرف خفي

(21) الروضتين: 2/ 103.

ويمدح أبو علي الحسن الجويني الناصر صلاح الدين الذي فتح القدس بعد أن أهملها من سبقه من الملوك تسعين عاماً فيقول[22]:

جند السماء لهذا الملك أعوان　　من شك فيهم فهذا الفتح برهان

تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والـ　　إسلام أنصاره صمٌ وعميان

فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم　　بأمر من هو للمعوان معوان

خزنت عند اله العرش سائر ما　　ملكته وملوك الأرض خُزّان

فالله يبقيك للإسلام تحرسه　　من أن يضام ويلقى وهو حيران

يا جامعاً كلمة الإيمان قامع من　　معبوده دون رب العرش صلبان

انه يرى أن الله تعالى أيد المجاهدين بمدد من السماء ملائكة تقاتل مع صلاح الدين وجنده لفتح القدس بعد أن ظلت حزينة تلك السنين الطوال ترزح تحت ظل العبودية وفي ذلك يذكرنا بجند صدر الإسلام حين كان نصر الله تعالى مؤيداً بملائكته تقاتل معهم والنبي صلى الله عليه وسلم يقودهم. وبذلك يرى أن للقائد أجرا ليس لسواء من المتخاذلين ممن كان همه في الدنيا وجمع الأموال وحسب.

ويرى الشريف ابن معمر الحلبي أن ما حدث من فتح عظيم لا يكاد يصدق لما كان قد نال الناس من يأس قبل ظهور قادة الفتح العظام ولولا تأييد الله وإيمانهم بذلك لما تيقنوا ذلك، ولذلك فهو يقول[23]:

---

(22) م. ن: 2/ 104.

أترى مناماً ما بعيني ابصر   القدس يفتح والفرنجة تكسر

وقمامة قمت من الرجس الذي   بزواله وزوالها يتطهر

ومليكهم في القيد مصفود ولم   ير قبل ذاك لهم مليكٌ يؤسر

قد جاء نصر الله والفتح الذي   وعد الرسول فسبحوا واستغفروا

فتح الشآم وطهّر القدس الذي   هو في القيامة للانام المحشر

ملك غدا الإسلام من عجب به   يختال والدنيا به تتبختر

نثر ونظم طعنه وضرابه   فالرمح ينظم والمهند ينثر

حيث الرقاب خواضع حيث العيو   ن خواشع حيث الجباه تعفر

إنها لوحة تصف القدرة العربية والنصر الإلهي الذي جاء مع عزائم المسلمين، والشاعر يؤكد الفعل القتالي وأثره في العدو الصليبي فنثر الجند وقائده يكون نتاج سيوف تقطع الرؤوس وتمزق الأشلاء والنظم نتاج رماح تشك الأشلاء حية لتحيلها إلى رمم. وتأتي جموع المعتدين اسارى أذلة جراء البطولات العربية الإسلامية.

---

(23) م. ن: 2/ 105.

وهذا العماد يعبر عن سروره وغبطة الناس بفتح القدس بقصيدة جميلة ذكر فيها القائد المنتصر صلاح الدين بما هو أهل له من شجاعة وإقدام(24):

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
سجيته الحسنى وشيمته الرضى وبطشته الكبرى وعزته القعسا
فلا عدمت أيامنا منه مشرقا ينير بما يولي ليالينا الدمسا
جنودك أملاك السماء وظنهم عداتك جن الارض في الفتك لا الانسا
ومن قبل فتح القدس كنت مقدساً فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها وألبستها الدين الذي كشف اللبسا
وعادت لبيت الله أحكام دينه فلا بطركا أبقيت فيها ولا قسا
وقد شاع في الآفاق عنك بشارة بأن أذان القدس قد بطل النقسا
جرى بالذي تهوى القضاء وظاهرت ملائكة الرحمان أجنادك الحمسا

فالشاعر يستعيد هنا ما كان شاع من أن القائد صلاح الدين سيطهر البيت ويعيد إليه سابق عهده بالمساجد والصلوات.

وهذا أبو الحسين بن جبر الأندلسي يمدح القائد صلاح الدين فيقول(25):

(24) الروضتين: 2/ 102.

أطلـّت على أفقك الزاهر سعود من الفلك الدائر

فأبشر فان رقاب العدا تمد إلى سيفك الباتر

وكم لك من فتكة منهمُ حكت فتكة الأسد الخادر

فتحت المقدس من أرضه فعادت إلى وضعها الطاهر

وجئت إلى قدسه المرتضى فخلصته من يد الكافر

وأعليت فيه منار الهدى وأحييت من رسمه الداثر

ثم ينتقل إلى ذكر محبة الناس للقائد والى ما سيناله من أجر عظيم عند الله تعالى ولأجل ذلك كان مضرب المثل وكيف لا فقد كان الناس يرون أن فتح القدس قد امتدت أنباؤه إلى الجنة فضلا عن الأنس وأسمعت الجماد واغتبطت لها السيوف الصم وفرحت بها مكة والمدينة ومن ضمته تربة طيبة صلى الله عليه وسلم غير أن بعض المنافقين سكتوا عن البوح بعظم الفتح حرصا منهم على إرضاء أسيادهم الصليبيين. يقول أبو الحسن الساعاتي[26].

أعيّا وقد عانيتم الآية العظمى لأية حال نذخر النثر والنظما

وقد ساغ فتح القدس في كل منطق وشاع إلى أن أسمع الأسل الصمّا

---

(25) م. ن: 2/ 105-106.

(26) الروضتين: 2/ 106.

حبا مكة الحسنى وثنى بيثرب وأطرب ذياك الضريح وما ضمّا

وله[27]:

عصفت به ريح الخطوب زعازعا فلقين طودا لا تخف أناته

هو منقذ البيت المقدس بعدما طالت فما وجد الشفاء شكاته

أحسنت بالبيت العتيق ويثرب ولك الفعال كثيرة حسناته

هذي سيوفك محرمات دونه لبكائهن تبسمت حجراته

ويقرن في قصيدة أخرى البطل صلاح الدين منقذ القدس الثاني بالخلفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاتحها الأول فيقول[28]:

هو الفاتح البيت المقدس بعدما تحامته سادات الدنا ومسودها

فضلية فتح كان ثاني خليفةٍ من القوم مبديها وأنت معيدها

ويروي أبو شامة قصائد ومقطوعات كثيرة تخص القدس وقادة فتحها وتؤكد عجز الملوك عن فتحها وأن الله هيأ لها ذلك القائد الفاتح صلاح الدين بعد أن مهد

(27) م. ن: 2/ 106.

(28) م. ن: 2/ 106.

لذلك قادة عظاماً وفي المقدمة عماد الدين زنكي وأبنه نور الدين، من ذلك قول العماد(29):

والقدس أعضل داؤه من قبلكم فوفيتم بشفاء ذاك المعضل
درج الملوك على تمني فتحه زمنا وغلتهم به لم تُبْلَـلِ
ما كان قط ولا يكون كفتحكم للقدس في الماضي ولا المستقبل

ونحن نقول سيفتح الله تعالى القدس وستحرر فلسطين من قيود الأنجاس على يد المخلصين من أبناء الأمة ما داموا قد وضعوا نصب أعينهم إنقاذها حسبة لله تعالى وتقرباً إليه وأداء لواجب مقدس يرون أنه فرض على كل مسلم يستطيع القتال، وليس ذلك على الله بعزيز.

إن الفرحة بفتح القدس ظلت شغلاً شاغلاً للشعراء، فراحوا ينظمون القصائد الطوال ويقيمون الأفراح، بل صاروا ينظمون قصائد خاصة بها أسماء كالقدسيات والمبشرات والفتحيات وسواها مما رواه أبو شامة في كتاب الروضتين(30).

3.رثاء الأبطال وبكاؤهم ورثاء القدس وتأكيد الخسارة الكبرى بفقدهم

تبرز في كل عصر شخصيات يكون لها الدور الفاعل في سير أحداثه، وفي زمن الحروب الصليبية أخفقت شخصيات قيادية في تحقيق تطهير الأرض العربية

---

(29) م. ن: 2/ 107.

(30) الروضتين: 2/ 116 وما بعدها.

الفلسطينية والقدس من براثن الصليبيين وشاءت قدرة الله سبحانه وتعالى بعد سنين طوال من القهر أن يظهر أبطال كان صلاح الدين أبرزهم ليحقق تطهير ارض العرب والقدس من الصليبيين، ولاشك أن عمادالدين ونور الدين خير من مهد السبيل إلى ذلك، فأما عمادالدين فقد استشهد قبل إنقاذ القدس بأكثر من أربعين عاماً (ت541هـ) كما توفي ابنه نور الدين قبل الفتح بأربعة عشر عاما (ت569هـ) فرثاهم الشعراء بقصائد صادقة فيها تفجع ولوعة وحسرة لما أصاب المسلمين بموتهما من حزن وغم، فقد كانوا يأملون أن يحقق الله تعالى الفتح على أيديهما، ولما تركاه من فراغ كبير ولشعورهم بان ثغور المسلمين أصبحت بحاجة إلى من يقوم على حمايتها والدفاع عن البلاد بعدهما.

أما القائد صلاح الدين فقد كانت وفاته بعد إنقاذ بيت المقدس بست سنوات (ت 589هـ) لذلك كانت وفاته كارثة فادحة وأمراً جللاً فجعت به الأمة العربية الإسلامية فبكته الأمة بكاء الثاكلين وحزنت عليه أشد الحزن ورثاه الناس والشعراء بقصائد تتفق ومكانته الرفيعة وما قدمه للامة من جلائل الأعمال الجهادية، وكان في مقدمة من رثاه وسجل محاسنه وجلائل أعماله الشاعر العماد الأصفهاني الذي ما فتئ يرسل بأناته الحزينة متخذا إلى ذلك من بحور الشعر ما ينسجم وحالة الحزن والقلق والألم كالكامل ذي الحركات المتسارعة والإيقاع المتعالي من ذلك قوله[31].

من للعلى من للذرى من للهدى   يحميه من للباس من للنائل

بحرٌ أعاد البرَّ بحراً بِرُّه   وبسيفه فتحت بلاد الساحل

---

(31) م. ن: 2/ 217.

وفتوحه والقدس من أبكارها أبقت له فضلا بغير مساجل

ما كنت استسقي بغيرك وابلا ورأيت جودك مخجلا للوابل

فسقاك رضوان الإله لأنني لا أرتضي سقيا الغمام الهاطل

فالشاعر يرثي البطل بوصفه قائداً مدافعا عن الدين وعن حمى العرب والمسلمين، فهو المنقذ بعد أن عجزت الملوك عن ذلك عقوداً طويلة، ولم يرثه كما رثى الملوك والأمراء (لأنه كان يجاهد بسيفه مدافعا عن الدين وسقط في ساحة الجهاد من هنا كانت الفجيعة وكان الرثاء ولو أن الشاعر كان يتفجع على صلاح الدين كما يتفجع كل الشعراء بإضافة الكرم وأبهة الملك وسوى ذلك إلى الميت لاختلف معنى الشجاعة هنا عن أي رثاء آخر لأنها ليست صفة تقليدية بل هي صفة حقيقية يدلل عليها الشاعر في أبياته) [32].

وله فيه مرثية مطولة عدد أبيتها مائتان واثنان وثلاثون نهج فيها نهجه في قصيدته السابقة من وصف موضوعي وأكد فيها أن موت القائد كان موت أمة إذا لم يقم مكانه من يسد فراغا أحدثه فهو رمز حي للامة ولقوتها وحيويتها... يقول[33].

شمل الهدى والملك عم شتاته والدهر ساء وأقلعت حسناته

أين الذي كانت له طاعتنا مبذولة ولربه طاعاته

---

(32) شعر الجهاد في الحروب الصليبية 182.

(33) الروضتين: 2/ 215-217.

باالله أين الناصر الملك الذي ﷲ خالصة صفت نيّاته

فلئن هوى جيل لقد بنيت لنا ببنيهِ من هضباته ذرواته

لا تحسبوه ممات شخص واحد فممات كل العالمين مماته

ولقد سجل (كتاب الروضتين) قصائد في رثاء البيت المقدس وذلك فن ليس بالمشتهر في الأدب القديم ألا ما كان في وصف بعض المدن فيما بعد لما أصابها من خراب. أما في زمن الحروب الصليبية فقد ضعفت الرجال بعد قوة ولم تحفل تلك البلاد بمن يحافظ على النصر وروحه ففي سنة ست عشرة وستمئة وبعد أن انتشر الصليبيون مرة أخرى وحاصروا البيت المقدس الذي خرب فأثار حزن الناس والشعراء خاصة وقد تشتت الناس عنه ورغبوا عن السكن به فقد دخله الصليبيون سنة خمس وعشرين وستمئة وفي ذلك الزمن الصعب قال الشعراء قصائد حزينة منهم شهاب الدين بن المجاور الذي قال في ذلك شعرا منه[34].

أعيني لا ترقى من العبرات صِلي في البكا الآصالَ بالبكرات

لعل سيول الدمع يطفئ فيضها توقد ما في القلب من جمرات

ويا قلب أسعر نار وجدك كلما خبت بادّكار يبعث الحسرات

ويا فم بح بالشجو منك لعله يروّح ما أقلى من الكربات

على المسجد الأقصى الذي جل قدره على موطن الإخبات والصلوات

(34) م. ن: 2/ 205.

على منزل الأملاك والوحي والهدى على مشهد الإبدال والبدلات

على سلم المعراج والصخرة التي أنافت بما في الأرض من صخرات

على القبلة الأولى التي اتجهت لها صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمور واكرم عامر وأشرف مبنيٍّ لخير بناة

وما زال فيه للنبيين معبد يوالون في أرجائه السجدات

عفا المسجد الأقصى المبارك حوله رفيع العماد العالي الشرفات

لتبك على القدس البلاد بأسرها وتعلن بالأحزان والترحات

لتبك عليها مكة فهي أختها وتشكو الذي لاقت إلى عرفات

لتبك على ما حل بالقدس طيبة وتشرحه في أكرم الحجرات

لقد شتتوا عنها جماعة أهلها وكل اجتماع مؤذن بشتات

ولا شك أن في القصيدة لوعةً وألماً وحسرة فالشاعر يستبكي عينيه بدمع سخين ويستبكي كذلك المدنَ المقدسة والناس على كل مفردة في القدس تحكي الألم والأسر وفراق الأحبة. لقد أوقد ذلك الفقد في أحشاء الشاعر والناس أجمعين، نارا لفقدهم ذلك الرمز الذي له في نفوسهم موطن كبير ولهم فيه موطن كبير فهو البيت المقدس منزل الملائكة والوحي ومعراج الرسول صلى الله عليه وسلم ومجتمع

الأنبياء وأولى القبلتين وثالث الحرمين وكل أولئك يستدر الدمع والحزن ويستبكي حواضر المسلمين فضلا عن الناس وينطق الشعراء معبرين عن ذلك كله يصادق الشعر وبالدعوات لاستنهاض الهمم لإنقاذ القدس كما أنقذ أول مرة على عهد الخليفة الثاني، وثاني مرة على عهد صلاح الدين الأيوبي.

وبعد ففي كتاب الروضتين لأبي شامة قصائد تحكي الفرح والحزن منسوبين إلى القدس وتصور الفرح وتشخص فيه المدينة شامخة باسمة مزدهية بأبطالها وبمواطن القدسيّة فيها وترسم أشعار الروضتين صورا للقدس باكية تستنجد بالمسلمين وتشير إلى بطش الصليبين وهمجيتهم. وترسم صورا في إزاء ذلك تجسد رحمة القائد المسلم بالصليبيين بعد إنقاذها، تلك الرحمة المستمدة من هذا الدين وتعاليمه ومن خلق القرآن وسيرة نبي الإسلام.

لقد كان للشعر دوره الكبير في رسم الصورة الصادقة لتلك الأحداث الجسام ولبعث روح الجهاد في نفوس المسلمين وفي توثيق الانتصارات الإسلامية وتؤكد الروح الجماعية لدى المسلمين حين الملمات لا تفرق بينهم المذاهب والنزعات فكلهم مسلمون ولنا في كثير من القادة والجنود أمثلة ولنا في الشعراء كذلك فأبن منير الطربلس شاعر روى عنه أنه من الغلاة وأنه شاعر خبيث اللسان هجاءً فاحش[35] وسوى ذلك كثير غير أن المأساة صهرت هذا وذاك ولم يعد ذلك الرجل إلا مجاهدا بسيفه ولسانه ضد عدو الأمة العربية الواحد ولا فرق في الدفاع بينه وبين مسلم قادر على الدفاع عن أمته وهذا يؤكد أن ضمير الجماعة عند المسلمين

---

(35) ينظر وفيات الأعيان لابن خلكات 1/ 156، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي" 5/ 299، وشذرات الذهب: 4/ 146.

هو المبرز في الحياة حتى أن العبادات يكون أداؤها بصورة جماعية أفضل عند الله تعالى من الصورة الفردية منها الصلاة والحج والصيام وسوى ذلك.

نسأل الله تعالى أن يهيئ للقدس صلاح الدين يخرج من العراق ويطهر بيت المقدس وينقذه وينقذ المقدسات الإسلامية من أسرها والله خير الناصرين.

Abstract

Jêrusalèm in Abi-Shama Al-Maqdisy's book "Al-Roudation"

Dr. AbdAllh Fathi Al-Daher (*)

The Crusades increased the enthusia sm of Mouslims in Palestine and the Islamic World. Poets began to transfer the people's rage to provoke others. Among the poets who wrote about this were brilliant. Some of them were Ibn-Al-Qairasany, Al-Abuodi, Osama bin Munkid, and others. Their poems were in the history books, such as "Al-Routatain, fie Akhbar Al-Doulatain" written by Al-Maqdisy who died in 665A.H. The action was put in an elegant way. The poems which were written in this book have the following aspects:

(*) Dept. of Arabic - College of Arts- University of Mosul.

1. Provoking the Islamic leaders to free Jerusalem and other cities.
2. Describing the battles clearly.
3. Morning over martyrs and Jerusalem.

Some of these poems were analyzed artistically and literally.